

الإله اللات ذكر أم أنثى؟

زكريا محمد*

يدعى الثالوث المكي: اللات والعزى ومناة باسم «بنات الله». وقد فهم الباحثون الغربيون، وتبعهم في ذلك الباحثون العرب، من هذا الاسم أن هذا الثالوث مؤنث كله، أي إنه مكون من إلهات مؤنثات. غير أن الحقيقة غير ذلك في ظني. فالأنثى الوحيدة فيه هي العزى. وأود هنا أن أعرض للحد الأول من هذا الثالوث، أي للآلات، من أجل تحديد طبيعته الجنسية.

وقد قادت بعض المصادفات إلى دعم ظاهري لفكرة أن اللات قد يكون إلهاً مؤنثاً. أولى هذه المصادفات أن اللات يتمثل بصخرة، هي الصخرة التي صارت في ما بعد عتبة لمسجد الطائف. وقد ظلت هذه الصخرة موجودة حتى دخول الرحالة الأوروبيين الحديثين إلى الجزيرة العربية في ما يبدو. ولأنه يتمثل بصخرة، فإن الحديث عنه يجري بالتأنيث أحياناً، لكن هذا التأنيث يخص صخرته لا طبيعته الجنسية. وخذ هذا المثال: «وقالوا: بل كانت اللات في الأصل رجلاً من ثقيف. فلما مات، قال لهم عمرو بن لحي: لم يممت، ولكن دخل في الصخرة، ثم أمر بعبادتها، وأن يبنوا بنياناً يسمى اللات» (جواد علي، المفصل). وكما نرى، فجملة «كانت اللات» تعني: كانت صخرة اللات. ولو كان الأمر غير ذلك، لكان على الجملة أن تكون «كانت اللات في الأصل امرأة».

أما المصادفة الثانية، فهي أن معبد اللات كان يسمى «الربة». وقد ظن كثيرون أن هذا الاسم يعني «الإلهة». وخذ هذا النص من «لسان العرب» كمثل على سوء الفهم هذا: «وفي حديث عروة بن مسعود، رضي الله عنه: لما أسلم وعاد إلى قومه، دخل منزله، فأنكر قومه دخوله قبل أن يأتي الربة، يعني اللات، وهي الصخرة التي كانت تعبدتها ثقيف بالطائف» (لسان العرب).

هنا في هذا النص، قد يفهم كما لو أن اللات (ربة) إلهة، مع أن الحديث يجري عن صخرة اللات. وقد خدع بهذا النص وأمثاله الدكتور جواد علي العالم المدقق رحمه الله: «وقد عرف البيت الذي بني على اللات «بيت الربة»، ويقصدون بالربة اللات، لأنه أنثى في نظر عابديه» (علي، المفصل، د. جواد، 1970، ج 6، ص 229). غير أن حديث وقد ثقيف المشهور، ينسف هذه الفكرة ويلغيها تماماً: «وفي حديث وقد ثقيف: كان لهم بيت يسمونه الربة، يضاؤون به بيت الله تعالى، فلما أسلموا هدمه المغيرة» (لسان العرب). وكما نرى، فبيت ثقيف، أي معبدهم، الذي يرونه نظيراً للكعبة، هو الذي يسمى الربة، وليس «اللات». والربة هنا تعني الدار الضخمة: «الربة: الدار الضخمة. يقال: دار ربة: أي ضخمة. قال حسان بن ثابت: وفي كل دار ربة خزرجية/ وأوسية لي في ذراهن والد» (الزبيدي، تاج العروس). ويؤكد «لسان العرب»: هذا في حديثه عن كعبة نجران: «الربة: كعبة كانت بنجران مذحج وبني الحرث بن كعب، يعظمها الناس، ودار ربة: ضخمة» (ابن منظور، لسان العرب). وهكذا فكعبة نجران، لا إلهة نجران، هي التي كانت تدعى «الربة». كما أن بيت اللات، أي معبده، هو الذي يدعى الربة. الربة صفة للبيت لا صفة للإلهة.

أما رواية ابن شبة عن هدم الربة، أي بيت اللات، فتقول: «فقام المغيرة... فقال: فبحكم الله يا معشر ثقيف، إنما هي (أي الربة) لكاح حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله واعبدوه، ثم ضرب الداب فكسره ثم علا على سورها وعلا الرجال معه،

فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض» (ابن شبة، تاريخ المدينة). وفي هذا الخبر يتأكد تماماً أن البيت هو الذي يدعى الربة، لا الإلهة المزعومة باسم اللات. فالربة «حجارة ومدر»، أي بناء. ومن غير الممكن أن يكون المقصود تمثال اللات هنا. ذلك أن تمثال اللات مشكل من صخرة واحدة ليس فيها مدر، أي طين، في حين أن «الربة» مبنية من حجر ومدر، ولها باب وسور، أي إنها مبنى محدد. وعند ابن إسحق ما يؤكد ما نذهب إليه أيضاً. فهو يخبرنا أن أبرهة الأشرم اتجه في البدء إلى الطائف قبل أن يذهب إلى مكة لهدم الكعبة: «وأحث السير والانتلاق، حتى إذا أشرف على وادي وج من الطائف، خرجت إليه ثقيف، فقالوا: أيها الملك، إنما نحن عبيدك، وليست ربتنا هذه بالتي تريد، يعنون اللات، صنهم، وليست بالتي تحج إليها العرب، وإنما ذلك بيت قريش، الذي تجئ إليه العرب» (ابن إسحق، السيرة).

هنا يظهر، وبوضوح كبير جداً، أن الربة بيت ثقيف. فهم يقولون عن معبدهم

«ربتنا»، أي بيتنا وكعبتنا، رغم أن ابن إسحق يقول شارحاً بشكل غير سليم في رأينا: «يعنون اللات، صنهم». فهم يقولون: لا تهدم ربتنا، أي بيتنا، فليس هو مقصدك، وإنما مقصدك بيت قريش، أي ربة قريش، أي الكعبة. وهذا يفسر الخبر الذي أوردناه، والذي يقول إن ثقيف بنت ربتنا من أجل مضاهاة الكعبة.

الرجل الذي دخل الصخرة

من ناحية ثانية، الروايات العربية بغالبيتها الساحقة تقول لنا إن اللات كان في الأصل رجلاً يلبس السويق، أي يعجن خليط القمح والشعير، ويبعده على صخرة، فمات ودخل الصخرة بعد موته، كما رأينا في النص الذي أوردناه أعلاه: «وقالوا: بل كانت اللات في الأصل رجلاً من ثقيف. فلما مات، قال لهم عمرو بن لحي: لم يممت، ولكن دخل في الصخرة، ثم أمر بعبادتها، وأن يبنوا بنياناً يسمى اللات» (جواد علي، المفصل).

وتبعاً لهذا التقليد المركزي لدينا رجل،

أي لدينا كائن مذكر، مرتبط بصخرة محددة، وعند موته دخل في الصخرة ففقدت هذه الصخرة وعُبدت. والسؤال: كيف يمكن لإلهة مؤنثة أن تتمثل برجل، وكيف يمكن لصخرتها أن تحوي بداخلها رجلاً؟

لكن الذي أدى إلى تضليل كثيرين، ومن بينهم الدكتور جواد علي، إنما الربط بين اللات والإلهة أليال التي ذكرها هيروودوتس كمعبودة للعرب. فقد أخبرنا الرجل في تاريخه أن العرب يعبدون إلهين اثنين، لا يعبدون سواهما: ديونيسوس، الذي يسمونه أورتالت، وأفرودايت، التي يسمونها «أليال». وقد درجت العادة على افتراض أن «أليال» هي «اللات». لكن الأكثر منطقية أن نفترض أن «أليال» هي صيغة من صيغ «ليليث» الإلهة المعروفة في المنطقة، والمذكورة كزوجة آدم الأولى في الأدب العبري.

البيروني واللات

غير أن أهم نص عربي عن طبيعة اللات جاءنا من البيروني في كتابه «الأثار

الباقية من الأمم الخالية»، وفي سياق حديثه عن ديانة الصابئة الحرائبية: «ويذكرون (أي الصابئة الحرائبية) أن الكعبة وأصنامها كانت لهم، وعديتها كانوا من جملتهم، وأن اللات كان باسم زحل، والعزى باسم الزهرة» (ص 205). وما يمكن استخراجه من النص القصير الحاسم هو ما يأتي:

أولاً: أن اللات إلهة مذكر، وليس مؤنثاً كما تزعم الغالبية الساحقة من دارسي ديانة العرب قبل الإسلام، غربيين وغير غربيين. فهو عند الصابئة نظير زحل ومماهيه. وزحل إله مذكر عند الجميع، وبلا جدال. كما أن زحل هو «ساتيرن» عند اليونان والرومان. وساتيرن هو «السايطرون» الشهير الملك الأسطوري في مدينة «الحضر» عند العرب قبل الإسلام. وهو إله خمري، ما يعني أن اللات خمري أيضاً. وخمرية اللات لها علاقة بعنب الطائف وبنبيذها.

ثانياً: أن العزى عند الصابئة هي الزهرة. والزهرة إلهة مؤنثة. وهذا ما يتفق مع المصادر العربية التي تقدم لنا العزى كإلهة لا شك في أنوثتها.

ثالثاً: وبما أن اللات مذكر الثالوث، فإن تعبير «بنات الله» لا يحدد الطبيعة الجنسية لهذا الثالوث الإلهي، إذ ثمة واحد من هذا الثالوث على الأقل من طبيعة مذكورة هو اللات. وهذا يجبرنا على أن نفهم مصطلح «بنات الله» بمعنى مختلف عن المعنى السائد. فكلمة «البنات» تعني التماثيل. وهناك حديث عن عائشة أنها كانت «تلعب بالبنات» في طفولتها، أي بالتماثيل الصغار التي يلعب بها الأطفال. كما أن «البنات» أيضاً تعني: النجوم الصغار بحسب الزبيدي في قاموسه. وبالتالي، فبنات الله تعني أصنامهم وتماثيلهم، أو نجومهم، ذلك أن هذا الثالوث يمثل نجوماً سماوية في نهاية الأمر.

والحق أن هذا يتواءم من جدال القرآن ضد الصفة المؤنثة للثالوث: «أفرايتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذا قسمة ضيزى. إن هي إلا أسماء سميتوهما أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس» (النجم: 19-23). «إن هي إلا أسماء سميتوهما أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان». هذا هو جوهر الفهم القرآني للاسم (بنات الله). فهذا مجرد اسم ولا يعكس حقيقة الثالوث الذي هو ملائكة الله: «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتب شهداتهم ويسألون» (الزخرف: 19).

بناءً عليه، لم يحدثنا البيروني للأسف عن الحد الثالث في الثالوث (مناة). أما أنا فقد اقترحت في كتابي السابق الذكر أنه هو الآخر إله مذكر.

على أي حال، فقد كان لأيووب التوراة ثلاث بنات: الأولى يميمة، والثانية قصيبة، والثالثة قرن هفوك. وهناك من يظن حقاً أن هاتيك البنات أنسات يطلبن الزواج. لكن الحقيقة أنهن بنات مثل «بنات الله» المكيات، أي إنهن كائنات دينية.

كذلك كان لأيووب أصدقاء ثلاثة: أليغاز التيماني، بلدد الشوحي، و صوفر النعماني. وهؤلاء الأصدقاء هم أيضاً ثالوث مثل الثالوث المكي. لكن هذا الثالوث يتبدى هنا كثالوث مذكر. بذا، فتذكر هذه الثالوث أو تأنيثها لفظياً لا يدل على طبيعتها الجنسية. فطبيعتها الجنسية هي أنها تتكون من ذكربن وأنثى. الحدان الطرفيان ذكربن، والحد الأوسط مؤنث.

* شاعر فلسطيني



منحوتة حجرية لللات وجدت في الطائف